قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء : ٢٨ - ٢٩]

معاني الكلمات

الكلمة	معناها
و قضى	أمر و ألزم و حكم
ولا تنهرهما	لا تزجرهما عما يعجبك
قولا كريما	حسنا جميلا لينا
للأوابين	للتوابين مما يفرط منهم
و لا تبذر	تنفق مالك في غير طاعة الله

بعد أن ذكر الله سبحانه أن الأساس في قبول الأعمال هو الإيمان بالله وحده وعدم الإشراك به، أتبع ذلك بما يقتضيه الإيمان من عبادة ومعاملة فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ " قضى" في هذه الآية هي بمعنى: أمر وألزم وأوجب عليكم، يحتمل أن يكون معنى في هذه الآية أمر وألزم وأوجب عليكم، وليس بمعنى القضاء والقدر؛ لأنه لو كان بمعنى القضاء والقدر لما عبد غير الله؛ لأنه لا يجوز أن يقدر الله شيئا ولا يقع من الكثير من الناس. قال ابن عباس والحسن وقتادة: " ليس هذا قضاء حكم، بل هو قضاء أمر". وفي مصحف ابن مسعود (ووصى ربك).

ويحتمل أن يكون المراد بها القضاء والقدر، فيكون القضاء قد تعلق بالأمر بعبادة الله، لا بنفس العبادة، أي: وقضى ربك أمره ألا تعبدوا إلا إياه، أو يكون الضمير في قوله :للمؤمنين من الناس

دون غيرهم، وبذلك تبقى قضى على مشهور موضوعها وهو معنى القضاء والقدر. ثانيا: أمر الله بالإحسان للوالدين والتأدب في معاملتهما

بعد أن أمر الحق سبحانه بتخصيصه وحده بالعبادة ، أردف ذلك بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ على التأويل الأول لمعنى ﴿وَقَضَىٰ﴾ الذي هو الأمر والإيجاب، يكون قوله: معطوفا على الأولى، أي: أمر الله ألا تعبدوا إلا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا .

مقطوعا من الأول؛ كأنه أخبرهم بقضاء بمعنى القضاء والقدر يكون قوله وعلى التأويل الثاني لمعنى الله، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين، ثم فصل ما يجب من الإحسان إليهما بقوله : ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾

استعارة حيث شبه الذل بطائر ذي جناح، ثم حذف الطائر، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الجناح، أي: أقطعهما جانب الذل منك ودمث لهما نفسك وخلقك. وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله واستكانته ونظره، ولا يحد إليهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب،. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف، قيل: من يارسول الله؟ قال: " من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة " [صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر، فلم يدخل الجنة.]

وقوله: مِنَ ﴿ٱلرَّحۡمَةِ" ﴾ من " هنا لبيان الجنس، أي: إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس لا بأن يكون ذلك استعمالا، ويصح أن يكون لابتداء الغاية.

ثم أمر الله عباده بالترحم على الوالدين وذكر منتهما عليهم في التربية؛ ليكون تذكر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقا وحنانا عليهما، قال تعالى:﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾

قال القرطبي: " أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفقا بك؛ إذ ولياك صغيرا جاهلا محتاجا فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما وجاعا وأشبعاك، وتعريا وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه

من الصغر، فتلي منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم ". [الجامع لأحكام القران، للقرطبي: 10/244]

ثم حذر الله تعالى عباده من التهاون في بر الوالدين فقال: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ ﴾

أي: ربكم أعلم بما في نفوسكم من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما أو من غير ذلك، فليس ظاهر برهما إذا كان فيه الإخلاص رياء؛ لأن الله تعالى مطلع على ما في نفوسكم، وأعلم بأحوالكم الظاهرة والباطنة.

ثم وعد في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله فقال : ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ اختلف في المراد بـ ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ ﴾ في الآية، فقالت فرقة: هم المصلحون، وقال ابن عباس: هم المسبحون، وقال أيضا: هم المطيعون المحسنون، وقال ابن المنكدر: هم الذين يصلون العشاء والمغرب، وقال عون العقيلي: هم الذين يصلون صلاة الضحى. وحقيقة اللفظة أنه من آب يؤوب إذا رجع، وهؤلاء كلهم لهم رجوع أبدا إلى طاعة الله تعالى. قال ابن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وفسر الجمهور

﴿لِلْأَوَّٰبِينَ ﴾ بالرجاعين إلى الخير. وقال ابن جبير: أراد بقوله﴿ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ الزلة والفلتة تكون من الرجل إلى أحد أبويه، وهو لم يصر عليها بقلبه ولا علمها الله من نفسه.

التأكيد على الإحسان إلى الوالدين جزاء لهما على ما أسديا لأبنائهما من مجهودات وعطايا وخدمات، ويتأكد هذا الإحسان في حالة كبرهما وعجزهما، والإحسان كما يكون ماديا بالإنفاق عليهما وجوبا أو تطوعا، يكون معنويا بخفض الجناح وإلانة الكلام والطاعة في غير معصية

في الآيات التالية، طُرحت المبادئ الأساسية التي يسعى الإسلام إلى بناء بنية الحياة الإنسانية عليها. تُشكل هذه المبادئ بيان دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي أعلنها في نهاية المرحلة المكية من رسالته، وعشية المرحلة الجديدة في المدينة المنورة، ليعلم الجميع أن المجتمع والأمة الإسلامية الجديدة ستُبنى على هذه المبادئ العقائدية والأخلاقية والثقافية والاقتصادية والقانونية.

هذه الوصية شاملةٌ جدًا فهي لا تحرم عبادة أحدٍ سوى الله فحسب، بل تعني أيضًا وجوب طاعة الله وحده وعبادته والخضوع له دون منازعة ينبغي على المرء أن يقبل أوامره وشريعته وحده

ليكون أهلًا للطاعة، وأن تكون سلطته هي العليا على كل شيء لم تكن هذه مجرد وصيةٍ مقتصرة على عقيدةٍ دينيةٍ وممارسةٍ فردية، بل كانت أساسًا للنظام الأخلاقي والثقافي والسياسي الذي أرساه النبي صلى الله عليه وسلم عمليًا في المدينة المنورة. وكان مبدأها الأول والأهم أن الله وحده هو المالك والمالك والمشرع.

تُملي هذه الآية أن أعظم حقوق الإنسان بعد حق الله هو حق الوالدين. لذا، يجب على الأبناء طاعة والديهم وخدمتهم واحترامهم. ويجب أن تُلزم الأخلاق الجماعية للمجتمع الأبناء بشكر والديهم واحترامهما، وأن يخدموهما كما رباهما في صغرهما. وفوق كل ذلك، فإن هذه الآية ليست مجرد توصية أخلاقية، بل هي أساس حقوق الوالدين وصلاحياتهم، التي نجد تفاصيلها في كتب الحديث والفقه. علاوة على ذلك، يُشكل السلوك المحترم والطاعة ومراعاة حقوق الوالدين أهم عنصر في التربية المادية والأخلاقية في المجتمع والحضارة الإسلامية. وقد رسخت هذه الأمور، على مر العصور، مبدأ أن الدولة الإسلامية ستُحافظ على سلامة الحياة الأسرية وسلامتها بالقوانين واللوائح الإدارية والسياسات التعليمية، وتمنع تفككها.

وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا

تهدف هذه النصوص الثلاثة إلى التأكيد على أن الإنسان لا ينبغي أن يقتصر على كسبه وثروته لنفسه، بل عليه أن يبذل قصارى جهده في قضاء ضرورات حياته باعتدال، وأن يؤدي حقوق أقاربه وجيرانه وسائر المحتاجين. هذا الموقف من شأنه أن يُسهم في غرس روح التعاون والتعاطف والعدل في الحياة الإسلامية الجماعية. وهكذا، يتعاون كل قريب مع الآخر، ويساعد كل غني المحتاجين في جواره، ويجد ابن السبيل نفسه ضيفًا كريمًا بين كرماء. ينبغي أن يكون مفهوم الحقوق واسعًا بحيث يدرك كل إنسان أن لجميع البشر حقوقًا على نفسه وماله، فيخدمهم على أساس أنه يؤدي حقوقهم دون منة. عندها، يستغفر أحدهما الآخر إذا عجز عن خدمته، ويدعو الله أن يمن عليه بخدمة عباده.

لم تقتصر مواد البيان الإسلامي هذه على التعاليم الأخلاقية فحسب، بل شكلت أساسًا لأحكام الزكاة والصدقة التطوعية. واستندت إليها أحكام الميراث والوصية والوقف. وحُددت حقوق الأيتام بموجبها، وأُلزم كل دار بإيواء عابر سبيل مجانًا لمدة ثلاثة أيام على الأقل. وتبع ذلك بناء منظومة أخلاقية متكاملة لغرس مشاعر الكرم والتعاطف والتعاون، حتى أن الناس بدأوا يدركون أهمية الحقوق الأخلاقية التي لا يمكن المطالبة بها شرعًا ولا إنفاذها قانونًا، ويلتزمون بها طوعًا.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ .

"ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك" أي: لا تبخل. "ولا تبسطها كل البذخ" أي: لا تُسرف. يريد القرآن من الناس اتباع الوسطية، أي ألا يكونوا بخيلين لدرجة تمنع تداول الثروة، ولا مُسرفين لدرجة تُدمر اقتصادهم. بل على العكس، عليهم أن يتعلموا السلوك باعتدال، فينفقون المال حيث ينبغي، ويتجنبون التبذير الذي يُوقعهم في المشاكل. في الواقع، من نكران نعمة الله إنفاق المال من أجل المظاهر والترف والمعصية وما شابهها مما ليس من ضروريات الإنسان ولا منفعته. ولذلك، فإن من يُبذرون المال على مثل هذه الأشياء هم إخوان الشيطان.

هذه البنود أيضًا ليست مجرد تعليمات أخلاقية للأفراد، بل تهدف إلى حماية المجتمع الإسلامي من الإسراف من خلال التوجيه الأخلاقي والضغط الجماعي والقيود القانونية. وبناءً على ذلك، اتُخذت في الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة خطوات عملية لحماية المجتمع من الإسراف. أولًا، حُرمت أشكال عديدة من الإسراف والترف شرعًا. ثانيًا، اتُخذت إجراءات قانونية ضده. ثالثًا، أُدخلت إصلاحات اجتماعية لوضع حد لتلك العادات التي تنطوي على الإسراف. مُنحت الحكومة صلاحية منع الناس من أشكال الإسراف الواضحة. وفوق كل ذلك، ساعدت الزكاة والصدقات التطوعية على كسر شهوة التقتير وتكديس المال. إلى جانب هذه الإجراءات، نشأ رأي عام مكّن الناس من التمييز بين الكرم والإسراف، وبين التوفير والتوفير: لدرجة أن البخل كان يُنظر إليه على أنه حقير، ويُعتبر المقتصدون شرفًا. لقد أصبح هذا الموقف الأخلاقي والعقلي جزءًا لا يتجزأ من المجتمع الإسلامي، وحتى يومنا هذا ينظر إلى البخيل والمحتكرين بازدراء في المجتمع الإسلامي، بينما يحظى الكرماء بالاحترام في كل مكان.

ترشد هذه الآيات إلى جملة من المقاصد التربوية، منها:

- الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص العبودية له دون سواه، هذه العبادة التي غاية وجود الإنسان في هذه الحياة.
- الالتزام بعبادة الله هو الذي يحقق للإنسان حريته الكاملة؛ لأن العبودية الخالصة لله هي عين الحرية، وسبيل السيادة الحقيقية.
- التذكير بنعم الله الكثيرة على الإنسان، ومن أكبر هذه النعم نعمة الوالدين، اللذين جعلهما الله سببا لإيجاد الإنسان، وهيأهما لخدمته في صغره، وجعل ذلك غريزة فيهما، كما هيأ الولد أيضا لخدمة والديه في كبرهما، وأمره بالإحسان إليهما والعناية بهما.